# قراءة رسالة البابا «الإيمان والعقل» في ضوء معطيات التقليد الشرقيّ

الأب سليم دكّاش اليسوعيّ(٥)

أ - من البديهيّ أن تكون صياغة الرسالة البابويّة الجامعة في الإيمان والعقل قد أُنجزت في إطار الفكر والثقافة الغربيّين. إلّا أنّ البابا يتوجّه برسالته إلى الكاثوليك في العالم أجمع. وفي هذا الإطار، كيف تستطيع الكنيسة الشرقيّة أن تستقبل الرسالة الجامعة هذه وتتفاعل معها، علمًا أنّ هذه الوثيقة تشدّد على العلاقة الحيويّة التي لا بدّ من أن تكون قائمة بين الإيمان بالله والعقل البشريّ؟ وكيف يستطيع المتبحّرون في الفلسفة واللاهوت، في واقع الكنيسة الحاليّ، أن يصيغوا خطابًا إيمانيًّا في الله ويسوع المسيح، يأخذ بعين الاعتبار مستلزمات العقلانيّة الحقّ، تلك العقلانيّة المرتبطة بالحداثة التي تفسح المجال واسعًا أمام بروز الفرد الحرّ؟ وهل تسمح ثقافتنا، التي تدّعي التعلّق بالتقليد والتقاليد، بأن تمثّل العقلانيّة ما يعود إليها من أدوار، من دون خطر الجحود ومن دون أن يتمّ إنكار مَن هو الثابت بذاته؟

ب - بالعودة إلى الرسالة الجامعة، لا بدّ من الإشارة إلى أنّ الغوص على موضوع علاقة الإيمان بالعقل هو فرصة سانحة للبابا يوحنّا بولس

(٥) رئيس تحرير المشرق، أستاذ الفلسفة في المعهد العالي للعلوم الدينيّة، جامعة القدّيس يوسف، بيروت.

الثاني كي يوجّه كلمات المديح إلى عظمة العقل البشريّ الذي يحمل دعوة طبيعيّة إلى الحقيقة. «إنّ الإيمان والعقل هما الجناحان اللذان يسمحان للفكر البشريّ بالتحليق صوب مشاهدة الحقيقة».

وإذا كان يوحنّا بولس الثاني قد اتّخذ موقف المدافع عن العقل البشريّ ووظيفته، فلأنّ الإنسان يطرح على نفسه أسئلة حول علّة وجوده: «هذه الأسئلة لها مصدر مشترك، البحث عن المعنى الذي يلحّ أبدًا في قلب الإنسان، والجواب عن هذه الأسئلة هو الذي يوجّه الحياة» (ف ١). فالكنيسة تُقدِّر الفلسفة «كونها تساهم مباشرة في طرح السؤال في شأن معنى الحياة وفي استطلاع الجواب عنه»، وكونها أداة من شأنها معرفة الحقائق الأساسيّة التي تعني وجود الإنسان. في هذا الإطار، يُفهمنا البابا أنّ على الفلسفة العودة ثانية إلى دعوتها الميتافيزيقيّة الأصيلة، أي ينبغي أن توظّف قدرتها الإدراكيّة في إدراك الثوابت السامية.

والثوابت السامية هذه هي موضوع كشفه لنا الوحي الذي يعبِّر عن حقيقة الله العميقة وكذلك عن خلاص البشر، ذلك الخلاص الذي أنجزه فينا يسوع المسيح؛ وخارج هذه الحقيقة، «إنّ سرّ الوجود الشخصيّ يبقى لغزًا مقفلًا». من هذا المنظور، العقل البشريّ مدعوّ إلى توسيع أُفُق معرفته أو إلى البحث في حقيقة الجواب الإلهيّ عن أسئلة البشر. وأوّل ما يقوله لنا العقل في هذا المجال إنّ الوحي إنّما يتمّ قبوله، في إطار السعي البشريّ المستمرّ، عطيّةً مجّانيّة، وأنّ قبول هذه العطيّة في وجود الشخص البشريّ يقود حكمًا إلى ممارسة العقل وظيفته، لكي يكون قبول العطيّة قبولًا بشريًّا معقولًا.

ج - وفي هذا الإطار بالتمام، يضع البابا العقل النظريّ في موقعه الفريد، من دون أن ينسى التشديد على الإيمان قدرةً على قبول الحقيقة وجوابًا يدلي به الإنسان الذي يسعى إليها. فالإيمان يفترض العقل، وكذلك يفترض أنّ العقل قيمة سامية بوصفه فعلًا خاصًّا بالإنسان. إلّا أنّ هذا العقل، وإن كان الإيمان الحقّ لا يخاف منه، فقد من قيمته في الأزمنة المعاصرة، حتّى على مستوى اللاهوت وخطابه.

ويعدّد البابا في هذا السياق ثلاثة أسباب أدّت إلى ذلك الضياع:

- إنّ الفلسفة المعاصرة، كما تُعرف، تعبّر عن الريبة حيال العقل، وبذلك تخلّت عن السعي إلى الإجابة عن أعمق الأسئلة جذريّة لدى الإنسان.
- الواضح أنّ تطوّر العلوم الإنسانيّة، كعلوم النفس والاجتماع وغيرها، حدّ من دور العقل البشريّ في استصدار الأحكام المنطقيّة على حساب التحليل واستنباط الوقائع الموضوعيّ. فالعقل النظريّ دُفع جانبًا ليحلّ مكانه الواقع الموضوعيّ.
- إنّ العقل النظريّ تراجع أمام صعود الثقافات والتقاليد القديمة، الأخلاقيّة والروحيّة منها، وبالتالي أصيب التساؤل الفلسفيّ بضمور شديد. لا شكّ في أنّ السبب الثالث هذا له وقعه في الإطار الكنسيّ الشرقيّ بعامّة.

د - وإذا أمعنّا النظر جليًّا في واقع الفكر في الشرق العربيّ بعامّة، والدينيّ بخاصّة، لتبيّن لنا أنّ العقل تحوّل منذ قرون إلى أداة كلاميّة جدليّة. لقد فقد العقل الذي يتزع إلى الحقّ مكانته النظريّة المستقلّة لصالح العقل الذي يخدم المقدّمات والمبادئ التي لا نقاش فيها.

إنّ هذا الصنف من العقل، بحسب أبي نصر الفارابي في رسالته في العقل هو ما يعكس الرأي المشترك أو الرأي ذا الأكثريّة العدديّة: «أمّا العقل الذي يردّده المتكلّمون على ألسنتهم فيقولون في الشيء: هذا ممّا يوجبه العقل أو ينفيه العقل أو يقبله العقل، فإنّما يعنون به المشهور في بادئ رأي الجميع، فإنّ بادئ الرأي المشترك عند الجميع أو الأكثر يسمّونه العقل، وأنت تتبيّن ذلك متى استقريت كلامهم شيئًا فشيئًا ممّا يتخاطبون فيه وبه أو ممّا يكتبونه في كتبهم ويستعملون فيه هذه اللفظة»[1]. وفي مكان آخر: «كذلك إذا استقريت ما يستعملونه من المقدّمات الأوّل تجدها كلّها بلا استثناء مقدّماتٍ مأخوذةً عن بادئ الرأي المشترك، فلذلك

(١) الفارابي، رسالة في العقل، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٤، ص ٧.

صاروا يرومون شيئًا ويستعملون غيره»[٢].

إنّ العقل «الكلاميّ» الجدليّ هذا مرتبط بذلك التصوُّر الذي يصيغه الرأي المشترك للحقيقة. وخيار الناس للرأي المشترك يقوم على العاطفة من ناحية، وعلى الرأي الأكثريّ وعلى التقليد النقليّ من دون نقاش. هذا الصنف من العقل الكلاميّ، الذي لا علّة لوجوده، إلّا لأنّ سلطةً تقوم بتثبيته، ينزع إلى إنكار الرأي الآخر، لا إلى مناقشته والدخول في حلقة الحوار، بل إلى رفض ما يقدّمه ويصيغه. وهكذا، فإنّ الجدل يتحوّل إلى إنكار الرأي الآخر، والفكر الأخلاقيّ يتحوّل إلى التزمّت، والإيمان إلى الاعتقادات الخاوية، والعقل النظريّ يصبح أداة وظيفيّة ليس إلّا. هذا العقل لا يستطيع أن يفكّر في الواقع في ما هو: فالنداء موجّه إلى العقل من أجل الوصول إلى المعنى وإلى تسمية ذلك المعنى.

هـ - إنّ الرسالة الجامعة الإيمان والعقل في تصوّرها الفلسفة، تدعو إلى إعادة الاعتبار إلى العقل كعقل ميتافيزيقيّ، ماورائيّ، وإلى تجاوز الفصل بين الإيمان والعقل، وإلى تأمين التكامل بين الفلسفة واللاهوت. وفي هذا السياق، تشدّد الرسالة على أهمّيّة الفكر الماورائيّ لأنّ أيّ فكر فلسفيّ يرفض الانفتاح الميتافيزيقيّ لا يستطيع أن يقوم بدور الوسيط في إدراك الوحي الإلهيّ وفهمه.

ومهمّة الفلسفة حاليًا في تفاعلها مع اللاهوت العقيديّ نستطيع إدراكها في تاريخ الفكر اللاهوتيّ الشرقيّ، خصوصًا في السياق المنهجيّ. وإذا كانت الصياغة اللاهوتيّة الشرقيّة تحوّلت، تحت ضغط ظروف قاهرة، إلى لاهوت جدليّ كلاميّ؛ وإذا كانت هذه الصياغة محدودة الإنتاج في أيّامنا، فإنّ بعض النصوص الأساسيّة تتحدّث عن ضرورة التكامل بين الفلسفة واللاهوت، وعن إيلاء العقل حقّه في أداء وظيفته. ولنا في أحد نصوص القدّيس يوحنّا الدمشقيّ، من القرن الثامن الميلاديّ، دعوة صريحة إلى الفصل بين حقلي الوحي والإيمان من جهة،

(٢) المرجع نفسه، ص ١٢.

والعقل والفكر والفلسفة من جهة ثانية، وذلك في مرحلة أولى، حتّى تصبح عمليّة الترابط والتكامل والتفاعل ممكنة في مرحلة ثانية. إذا كان لاهوت يوحنّا الدمشقيّ هو فكر مرتبط بزمن معيّن، فإنّ المنهجيّة التي اختارها لفكره يمكنها أن تكون فاعلة اليوم وصالحة لتفعيل اللاهوت الشرقيّ. فما يدعو إليه الدمشقيّ قبل أيّ أمر هو إعادة الاعتبار للفلسفة. يقول في كتابه الجدل:

«إنّ بعضهم جرّبوا إلغاء الفلسفة، إذ قالوا بأنّ لا وجود لها وأنّه لا وجود للعلم والإدراك. نقول لأولئك: تقولون بأنّ لا وجود للفلسفة ولا وجود للعلم ولا للإدراك[٣]. ونقول أيضًا: «العلم يفوق الأمور كلّها. والعلم هو نفس النفس العاقلة، كما أنّ الجهل هو نفس الظلمات. إنّ جهل العلم يشكّل ظلمة الجزء العاقل من الإنسان. العلم هو ختم الكائنات العاقلة، والتوق إلى العلم هو واجب على المسيحيّ»، فيقول الدمشقيّ: «فلنحتفظ بكلّ عقيدة تخدم الحقيقة ولندفع إلى الوراء كفران العقيدة السيّئة المتسلّطة»[٤].

إنّ الدمشقيّ يدعو إلى إعلان الحقيقة، إلّا أنّ هذه الحقيقة لن تصبح صادقة هنا والآن وفي الواقع المحسوس التاريخيّ، إلّا بواسطة العقل الذي هو أداة السعي إلى الحقيقة.

والسعي إلى الحقيقة، في منظور الدمشقيّ، هو التزام واضح بمواجهة خطيئة الإهمال، أي إهمال إعمال العقل، وهذا الإعمال واجب على المؤمن، إذ عليه أن يشهد الشهادة الفاعلة في كلّ ظرف. وهكذا، فإنّ حياة النعمة (وهي من ثمار الإيمان) هي حياة دينامية (مجرّدة وعمليّة)، أي إنّها حياة دينامية فاعلة تضع القدرات العقليّة والنفسيّة لدى الكائن الإنسانيّ في إطار عمليّ. وأيّ إيقاف لهذه الدينامية إنّما هو تجميد لحياة النعمة، يحول دون تجسّدها، لأنّ النفس العاقلة لم تعد تقوم بعملها.

---

(٣) راجع: *Dialectique* 3, *Patrol. Grecque* 94, col. 536 B; 67, col. 669.

(٤) راجع: *Dialectique* 1, *Patrol. Grecque* 94, col. 529 A.

و - في ختام هذه المداخلة، لا بدّ لنا من إعادة الاعتبار، في واقعنا الراهن، إلى الفلسفة كعلم من علوم الكائنات، لكي تتقدّم في السعي إلى اكتشاف الحقيقة، ولأنّ الحقيقة هي لزوم الفكر نفسه. ما تستطيع الفلسفة أن تقوم به هو أن تكون أداة وعي، وعي الفكر قضايا عالمنا الأساسيّة وقضايا الحياة، ودعوةً إلى فهم هذه القضايا في شموليّتها وجزئيّاتها، لتتنقل في الوقت عينه إلى تجديد الواقع الاجتماعيّ الدينيّ السياسيّ هذا، بشكل يخدم غايات الإنسان السامية.